الفصل

٥

التدهور والنقص

لاجدال فى أن المتحمسين لليوجينيا قد حركتهم إعادة اكتشاف الوراثة المندلية عام ١٩٠٠ وتطبيقاتها فى الوراثة البشرية، لكن الواقع يقول إن ثمة مناخا بين أتباع هذه العقيدة لتقبل الأفكار اليوجينية كان يتشكل بالفعل فى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا. فالداروينية الاجتماعية، باستدعائها الانتخاب الطبيعى لتفسير الظواهر الاجتماعية المختلفة قد استحضرت تيارا من المؤلفات مناصرا لليوجينية. تيارا تنبأ بالقضايا البارزة لحركة مابعد ١٩٠٠، لاسيما فكرة أن "الانتخاب الاصطناعى" - أى تدخل الدولة أو الانسانيين فى معركة البقاء الاجتماعى - قد بدأ يحل محل الانتخاب الطبيعى فى تطور البشر. اعتبر البعض أن إمكانيات الانتخاب الاصطناعى إمكانيات طيبة، بينما انتاب القلق آخرين لأنه يقود إلى انحطاط السلالة. كتب الفريد راصل والاس عام ١٨٩٠ "فى جلسة تمت أخيرا مع داروين وجدته ينظر إلى مستقبل البشرية نظرة متشائمة، لأن الانتخاب الطبيعى فى حضارتنا الحديثة لايلعب دورا، فلم يعد البقاء للأصلح. فالناجحون من سلالتنا بسبب ثرائهم ليسوا على الاطلاق هم الأفضل ولا الأكثر ذكاء. ومن المؤسف أن مجتمعنا يتجدد فى كل جيل من الطبقات الدنيا أساسا، لامن الطبقات المتوسطة ولا العليا".

أما والاس، العطوف الكريم، فقد فضل فكرة أن التحسين البيئى - لاالقضاء على "المتخلفين" - سيؤدى إلى التقدم الاجتماعى، لكنه اضطر إلى التسليم بأن أعمال جالتون وأوجست فايزمان قد ألقت "شكوكا خطيرة" على هذا الرأى. تشير دراسات جالتون الاحصائية فى الوراثة، بقوة، إلى ثبات صفات العشائر البشرية، ولقد قدم فايزمان على مايبدو تدعيما ميكانيكيا بنتائج نظريته عن البلازما الجرثومية، التى تقول إن قوة الوراثة تكمن فى

obeikandl.com

لم يكن فى بريطانيا ثمة ضجديل، وإنما كان بها تشارلس بوث الذى قام بدراسة لمسح لندن الفقراء فى ثمانينات وتسعينات القرن الماضى، وهى دراسة أُخذت على أنها تعنى أن نسبة ثابتة قد حكم عليها أن تظل فقيرة. بُذِل قدر كبير من استثمار للمندلية، بعد سنة ١٩٠٠، فى تفسير السلوك البشرى. اقترحت إحدى الدراسات أن المزاج الدينى العنيف يفصح عن صفتين: الشعور الدينى، والتقلب. وحذرت الدراسة من إمكان انتقال الصفتين منفصلتين لتكون النتيجة "أن يكون لأخٍ الشعور الدينى الثابت الطبيعى، بينما يرث أخوه التقلب دون أى كابح دينى، فيجد بالضرورة أن البيئة المنزلية لاتلائم طبيعته، ومن ثم يؤكد الفكرة الشائعة بأن أبناء الآباء الشديدى التدين يميلون إلى الانغماس فى الحياة الخليعة".

ورغم ذلك فلم يكن يكفى لخلق حركة يوجينية أن ينشر كل مانشر عن اليوجينيا، ولا المناخ الفكرى الموطد للداروينية الاجتماعية الذى ازدهرت فيه هذه اليوجينيا. إنما كان العامل المهم هو تلك التغيرات الاجتماعية التى سببت التوتر فى بريطانيا والولايات المتحدة منذ تحول القرن: التصنيع، نمو المشاريع التجارية الكبرى، انتشار المدن وأحياء الفقراء، الهجرة الواسعة من الريف - ومن الخارج (بالولايات المتحدة). ربما عرفت المدن فى بريطانيا وأمريكا - دائما - البغاء، والجريمة، وإدمان الكحوليات، والمرض، لكن أيًا من هذه المدن عموما ماعرفت كل هذه البيانات الاحصائية التى تفصّل بالأرقام حجم المشاكل. بينت الاحصاءات أن ثمة مشاكل - كمثل التعويق الذهنى أو الإجرام - تزداد سواء كل عام. لقد استوعب المجتمعان الانجليزى والأمريكى طويلا أناسا ولدوا بالخارج، غير أن الولايات المتحدة قد تعرضت بصورة خاصة لهجرة واسعة من شرق وجنوب أوروبا، بلغت الملايين فى أوائل ثمانينات القرن التاسع عشر، ملايين عبروا الأطلنطى ليستوطنوا المدن الرئيسية. وفى عام ١٨٩١ قدم الاقتصادى فرانسيس أمازا ووكر - الذى قاد الاحصاءات السكانية عامى ١٨٧٠ و ١٨٨٠ - قدم قضية احصائية مثيرة تقول إن المهاجرين يتكاثرون بمعدل أعلى من السكان المحليين. عرفت بريطانيا الهجرة أيضا، فلقد توطن الأيرلنديون الكاثوليك فى ليفربول وبرمنجهام، أو تدفقوا مع اليهود البولنديين والروس إلى الطرف الشرقى للندن. كتب إيرفنج فيشر إلى دافينبورت عام ١٩١٢ يقول إن وطأة الهجرة وحدها كفيلة أن تهيىء "فرصة ذهبية لدفع الناس بوجه عام للتحدث فى اليوجينيا".

لماذا كانت هذه "الدفقة" الجديدة لليوجينيا؟ هكذا سأل أحد محررى "ييل ريفيو" سنة ١٩١٣. قال إن هذا يرجع جزئيا إلى اعادة اكتشاف قانونى مندل، لكنه يرجع أيضا إلى تزايد مايطلب من دافعى الضرائب. مضى يقول "أوضحت الاحصاءات زيادة سريعة ثابتة فى نسبة الإملاق والجنون والجريمة، فى المجتمع بأكمله، وهو مايؤكد أن إعانة أمثال هؤلاء المنحرفين قد أصبحت عبئا حقيقيا على كاهل دافع الضرائب، وأنه بالرغم مما قد يحدث من تحسن فردى فيمن يتمتع بهذه الرعاية، فإن نسلهم هم بالتحديد "يرتد" - إذا جاز التعبير - إلى الأسلاف المنحطين. فالتحسين لم يفعل أكثر من أن هيأ لهم الفرصة كى ينشروا بذورهم غير الطيبة. قيل فى انجلترا إن "عدد ونوع من يولد فى أمة.... هما من الأمور البالغة الأهمية لدى كل عاقل، إذ أن ذلك سيرتد إليه بطرية عملية كلما طرق بابه (أو) وصله خطاب وقعه مأمور ضريبة الدخل العام". أعلنت جمعية اليوجينيا الأمريكية فى عصر آل كابونى أن تكاليف الجريمة التى تدفعها العائلة المتوسطة تبلغ نحو ٥٠٠ دولار سنويا، ثم أشارت: "ولابد أن نتذكر أن معظم المجرمين هم من ذوى الذكاء المعتل أو ذوى الاحساس المعتل، أو ممن يتصفون بكلتا الصفتين".

على أن اليوجينيا كانت تعكس القلق الاجتماعى للبروتستانت البيض - أهم معضديها - أكثر من قلقهم الاقتصادى. كانوا هم أقدم أرومة فى أمريكا، وكانوا هم أيضا الأقدم فى بريطانيا، إن تكن المراتب اليوجينية لاتضم - إلا بالكاد - أعضاء من الأرستقراطية الوراثية. (كان اليوجينيون البريطانيون يميلون إلى تشويه سمعة النبالة الوراثية، بل لقد اقترح بعضهم إعادة تشكيل مجلس اللوردات تبعا للقواعد اليوجينية). لاشك أن الأرستقراطية لم تعانِ من الزعزعة الاجتماعية التى قادت الطبقات الوسطى فى بريطانيا وأمريكا إلى تمجيد صفات "سلالة" شمال أوروبا أو الأنجلوسكسون (كان المصطلحان يستعملان مترادفين) وإلى الحط من قدر كل من يبدو أنه يهدد قوة "سلالة" وطنهم، بفضل موهبته الوراثية أو افتقاره لها.

كان الإيمان بمثل هذه القوة يعنى الكثير بالنسبة لبريطانيا الإمبريالية، فأمامها التحدى الألمانى البحرى يستثير القلق حول السيطرة البريطانية على البحار، ثم إن حرب البوير التى طالت قد أثارت علامات الاستفهام حول حماس جون بول. برزت إشارات الانحطاط البدنى أثناء حرب ا لبوير عندما أعلن المفتش العام على التجنيد أن ثمانية من بين أحد عشر متطوعا من مانشستر قد رُفضوا لعدم ملاءمتهم جسديا. تحرك البرلمان عام ١٩٠٣ ليشكل لجنة

تختص "بالتدهور القومى"، ورأى الكثير من الايطاليين أن نسيج أمتهم يتدهور ـ الملامح الأخلاقية العامة، الذكاء، النشاط، الطموح، القدرة على منافسة العالم.

عالج الفيزيائى الانجليزى و. س. د. هويذام وزوجته قضية قوة السلالة البريطانية عام ١٩٠٩ فى كتابهما الشهير "العائلة والأمة". كان الزوجان ـ ولهما من الأطفال ستة ـ قد أزعجهما تحديد النسل فى الطبقات القادرة. فالرغبة فى تحديد عدد الأطفال بالنسبة للقادرين هى عندهما "رقة خاطئة... خطر داهم بالنسبة للأمة، وخيانة عظمى لجنس البشر". واستطردا يقولان إن فى تاريخ الأمم موعظة، فمثل هذه الممارسة كانت "مقدمة لخراب الدول، ولتدهور وسقوط الامبراطوريات". ثم حذرا فى أسى من أن معدل المواليد فى ألمانيا قد انخفض بدرجة أكبر بكثير من بريطانيا.

أجرت الجمعية الأمريكية لليوجينيا مسابقة عام ١٩٢٨ ـ جائزتها الأولى ألف دولار ـ لأفضل المقالات عن أسباب تدهور الخصب فى "سلالة شمال أوروبا". أطلق السيكولوجى ج. ستانلى هول رئيس جامعة كلارك، أطلق شبح "الخطر الأصفر والخطر الشرقى" مؤكدا أن "المستقبل للشعوب التى تحمل أكثر، من الأطفال الأفضل، وتربيهم التربية الأفضل، فهؤلاء فى نهاية المطاف هم من سيسيطرون على كا ماتجمّع من ذرائع الحضارة البشرية، بينما تتوارى أمامهم السلالات غير الخصبة". أما تيودور روزفلت ـ الإمبريالى العاتى، ورب الأسرة المرح، والذى توفيت زوجته فى أعقاب الولادة ـ فنجده يوبخ الطبقة الوسطى والعليا من المجتمع لأنهما يتسببان فى "انتحار السلالة"، بتحديدهما النسل. اتجه المصلحون التقدميون الذين وُسموا باليوجينيا ـ كما فعل روزفلت ـ إلى أن يضعوا المصلحة القومية فى منزلة عليا مقارنة بالمصالح المحلية، وإلى أن يضعوا مصلحة المجموع فوق مصلحة الفرد، وإلي أن يمجدوا القوة الجديدة للإمبريالية الأمريكية. ولقد قلق مثل هؤلاء اليوجينيين أنْ وجدوا أن فصول الخريجين من الذكور فى هارفارد بأواخر القرن التاسع عشر ـ أى بعد خمسة وعشرين عاما ـ لاتشكل إلاّ نصف إلى ثلثى عددهم الأصلى.

ربما كان معدل المواليد التفاضلى لكارل بيرسون هو أكثر مااستشهد به اليوجينيون الأنجلو أمريكيون في مطبوعاتهم. ثمة نتائج لدراسة ديموغرافية أجريت عام ١٩٠٦ في عدد من أحياء لندن قام بها دافيد هيرون (من معمل جالتون) عضدت تحذيراته بأن النصف من كل

obeikandi.com

جيل يأتي عن مالايزيد عن ربع المتزوجين من الجيل السابق، وبأن الربع الخصب يتوزع في غير تناسب نحو حثالة المجتمع. أكد الزوجان هويذام أن الاصلاحات الاجتماعية والتقدم في المهارات الطبية قد رفعت متوسط العمر في "أفراد السلالة الضعيفة والفاسدة"، ثم أنها - وهذا هو الأهم - قد قللت من معدل الوفيات في مواليدهم. أما احتمال "التدهور القومي" فقد دفع الاجتماعي سيدني ويب - في منشور فابي - إلى أن يوسع من مدى استنباط بيرسون بأن الطبقات الدنيا تنجب أكثر من أي طبقة أخرى، فنجده يقول إن الأحياء الأفقر التي تتميز بكثرة الانجاب تكتظ بالكاثوليك الأيرلنديين واليهود، المشهورين بالخصب العالي وبزيادة تكاثرهم لأسباب دينية. كتب ويب يقول "في بريطانيا اليوم يقوم نصف المتزوجين أو ثلثاهم بتنظيم نسلهم، ويظل الانجاب غير مقيد بين الكاثوليك الأيرلنديين واليهود البولنديين والروس والألمان من ناحية، كما بين التافهين وغير القادرين من ناحية أخرى، وهؤلاء في معظمهم من العمال اللانظاميين وغيرهم من سكان الغرفة الواحدة في مدننا الكبرى... ولن ينتج عن هذا إلا التدهور القومي، أو أن تسقط هذه الدولة بالتدريج ليسودها الأيرلنديون واليهود. ثم إن هناك من الدلائل مايشير إلى أن حتى هؤلاء قد أصابتهم العدوى. وسينتهي الأمر إلى أن تئول هذه الدولة مستقبلا إلى الصينيين!".

كانت العنصرية من ملامح اليوجينيا في بريطانيا وأمريكا - وكانت الفروق بين السلالات في ذلك الوقت لاتحددها فقط الاختلافات في لون الجلد، بل الهوية العرقية أيضا. كان اليوجينيون - في وقار - يناقشون الملامح العرقية الوراثية لجاميع البوتستانت غير البيض. مجَّد بيرسون محاولة جالتون تصوير النمط اليهودي بالفوتوغرافيا المركبة (يقول بيرسون "كلنا يعرف الرجل اليهودي") وفي منتصف عشرينات القرن العشرين ذكر بيرسون أن الأطفال اليهود في الطرف الشرقي من لندن لهم من الذكاء مثل ماللمسيحيين، لكن أجسادهم تميل لأن تكون أدنى درجة، ثم أنهم أقذر لحدما. أخبر تشارلس دافينبورت موظفا عالي الرتبة بأن زواج اليهودية بالمسيحي سينتج نسلا ٩٠٪ منه يشبه الأب المسيحي "فالملامح اليهودية على العموم متنحية أمام الملامح غير اليهودية". أكد هويذام أنه إذا كان ثمة صفات طيبة في اليهود أو في غيرهم من الأجانب" فإنها لاتعادل الصفات النموذجية للأنجلوسكسون، ولايمكن أن نعتبر هؤلاء المهاجرين المعادلَ المُرْضي للمجتمع المحلي".

اعتنق اليوجينيون الأنجلو أمريكيون وجهة النظر السائدة في زمانهم القائلة بالتخلف

البيولوجى الوراثى للسود. توقع بعض اليوجينيين أن التهجين قد يعطى نتائج عرقية طيبة ـ كما يحدث فى قوة الهجين ـ وذكر صمويل ج. هولمز (أستاذ البيولوجيا بجامعة كاليفورنيا فى بيركلى)، فى اجتماع لنادى الكومنولث بسان فرانسيسكو أن سلالة الزنوج "تَبْيَضُّ" الآن بسبب إخصاب ذكور البيض للنساء السوداوات، أما الجنس الأبيض "فلم يلَوَّن بشكل واضح فى أى مكان"، ليضيف أن "هذا من وجهة نظر البيض يعتبر شكلا مفيدا من تلاقح السلالات". أما ثقل الفكر اليوجينى فقد حمله ميشيل جاير الذى لاحظ أن "الكثير من طلبة الوراثة يشعرون أن ثمة خطرا كبيرا يكمن فى تهجين أجناس واضحة الانفصال، بغض النظر عن تفوق السلالات الأصلية". اعتقد دافينبورت هو وموريس ستاجردا (عالم الحيوان الشاب) أن هذا هو نتيجة دارستهما عام ١٩٢٩ المعنونة "تهجين السلالات فى جامايكا" التى تفحصت صفات ثلاث مجاميع من البالغين كلّ من مائة فرد: الزنوج (السود) والأوروبيين (البيض) والمولدين (السمر). شملت هذه الدراسة صفات المزاج التى قال دافينبورت إنها تهم مشكلتنا الرئيسية: "المقدرة النسبية للزنوج والمولدين على مواصلة حضارة الرجل الأبيض". واستنبط المؤلفان، أن الزنوج ليسوا فقط متخلفين فى المقدرة الذهنية مقارنة بالبيض، لكن نسبة "التشوش الذهنى" فى السُمْر تزيد عن نسبته في أى من مجموعتى البيض والزنوج.

برزت في الحركة اليوجينية بوضوح ـ لاسيما بالولايات المتحدة ـ ادعاءاتٌ تقول بوجود فروق وراثية بين البروتستانت البيض من أرومة شمال أوروبا (أو "الواسب" كما أطلق عليهم فيما بعد) وبين الأعداد الكبيرة من السود واليهود والكاثوليك المهاجرين. كان ثمة حلقة مؤثرة في مدينة نيويورك تتحلق حول جمعية جالتون ومكتب السجل اليوجينى، وكانت تضم اليوجينى البارز ماديسون جرانت (الذى وضع "أفول السلالة العظيمة"، وهذا كتاب ظهر لأول مرة عام ١٩١٦ وحظى برواج كبير فى عشرينات القرن العشرين) الذى أصر على أن زواج الجنس الشمالى ـ وقد ادعى جرانت أنه أسمى مجاميع الجنس الأبيض ـ بمن هم دونه من العرق القوقازى (الألبىّ)، أو بالأسوأ حتى من هذا: بسكان حوض البحر الأبيض، سيؤدى بالضرورة إلى هجن ضعيفة.

لم تبرز العنصرية بمثل هذا الوضوح فى اليوجينيا البريطانية. لم يكن فرانسيس جالتون ـ الأب المؤسس لليوجينيا ـ بأقل عنصرية من معظم الفكتوريين، لكن مثل هذه الاعتبارات لم يكن لها إلا أقل وزن فى التنظير اليوجينى. فبالرغم من أن كارل بيرسون كان يحط من قدر اليهود

- والزنوج بالطبع - إلا أنه استمتع مرة بإثارة رجل دين في مدينة نيوكاسل عندما أخبر الحضور بأن آدم لابد أن كانت له ملامح زنجية، لأن انسان نياندرثال كان بالتأكيد أسمر اللون. كان المجتمع البريطانى من الناحية العرقية متجانسا أو يكاد، لقد كان معظم اليهود والكاثوليك الأيرلنديين يتركزون فى عدد محدود من المدن، ولم تكن المملكة المتحدة قد خبرت بعد الهجرة الواسعة للملونين. والحق أن بعض اليهود، كالطبيب سولومون هيربرت، كانوا من أبرز شخصيات حركة اليوجينيا البريطانية. صحيح أن اليوجينيين البريطانيين كانوا يتحدثون عن تهديد مهاجرى أيرلنده وأوروبا، إلا أن قلقهم الأعظم كان من تهديد النسيج الوطنى الذى ينتج عن معدل الولادة التفاضلى، ومايتبعه من إضعاف لقدراتهم الامبريالية التنافسية مقارنة بفرنسا وألمانيا. كانت اليوجينيا البريطانية تتسم مؤكدا بالعداء الطبقى لا العداء السلالى.

ثمة ارتياب صريح من الديمقراطية - بل قل حتى ازدراء - كان يميز بعض التفكير اليوجينى فى بريطانيا وأمريكا. رحب هنرى فيرفيلد أوزبورن، رئيس المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى، بزملائه اليوجينيين فى المؤتمر الدولى الثانى لليوجينيا بقوله إن "الروح الحقيقية للديمقراطية الأمريكية - بأن كل الناس يولدون ولهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات - قد خُلط بينها وبين المغالطات السياسية، بأن كل الناس يولدون ولهم نفس الصفات ونفس القدرات على حكم أنفسهم وحكم غيرهم، والمغالطات التربوية بأن التربية والبيئة ستتغلب على عيوب الوراثة". لكن، إذا ماكان اليوجينيون الأنجلو أمريكيون يستنكرون المعارضة من القاع الاجتماعى، فإنهم لم يظهروا أيضا شغفا كبيرا بأثرياء مجتمع القمة المعاصر. فموهبة إدارة الأعمال لم يُعترف بها في قائمة الصفات المرغوبة يوجينياً، وكان من العسير العثور على رجل أعمال بين قيادات اليوجينيا فى كلا القطرين. مكنت الحركة اليوجينية الطبقة المتوسطة والطبقة المتوسطة العليا فى بريطانيا وأمريكا من أن تنحت لنفسها مركز قوة بين أساطين الصناعة من ناحية وبين المجاميع منخفضة الدخل - المحليين منهم والمهاجرين - من ناحية أخرى. ربما اختلف اليوجينيون الاشتراكيون، والتقدميون، والمتحررون، والمحافظون، بالنسبة لنوع المجتمع الذى يرمون اليه، لكنهم جميعا كانوا متفقين عن إيمان بأن الخبرة البيولوجية التي يقررونها لابد أن تحدد القضايا الانسانية الأساسية للنظام الجديد المدينى الصناعى.

* * *

حدد اليوجينيون قيمة الانسان بقدر مايمتلكه من صفاتهم هم أنفسهم - تماما مثل فرانسيس جالتون، الذى اعتبروه قديسهم الراعى - تلك الصفات التى مكنتهم من النجاح فى المدارس والجامعات والتدريب المهنى. ولقد سووا مابين الجدارة والذكاء، لاسيما الذكاء الأكاديمى. ومثْل جالتون، سنجدهم وقد دُفعوا إلى الفرض بأن الذكاء صفة وراثية. التمس كارل بيرسون أن يختبر هذه القدرة الوراثية معتمدا على تقديرات المدرسين للقدرة الذهنية، وقبْله اعتمد جالتون علي المركز الاجتماعى والمهنى. أسهم جالتون، في ثمانينات القرن التاسع عشر، في ريادة نهج كمى لدراسة سيكولوجية الاختلافات الفردية بقياس الزمن الذى ينقضى حتى حدوث رد الفعل، وبما أشبه. ولقد أوحى هذا الابتكار للسيكولوجيين فى أوروبا والولايات المتحدة بمحاولة إثبات وجود علاقة بين القدرة الذهنية والصفات الجسمانية. ثم اتضح - عند تحول القرن - ألاَّ ثمة علاقة من هذا القبيل. لكن فكرة قياس الذكاء جذبت انتباه السيكولوجى الفرنسى ألفريد بينيه - فَتَدَلَّفت جالتون فى أهدافه للتَّكْمِيَة، إن لم يكن في مناهجه الشخصية.

طلبت الحكومة الفرنسية عام ١٩٠٤ - وهى توسع نظامها التربوى - من بينيه أن يبحث عن طريقة يمكن بها اكتشاف الأطفال المعوقين ذهنيا. قام بينيه بسلسلة من الاختبارات تتألف من عدد من المسائل القصيرة التى صُممت لاختبار صفات مثل الذاكرة، والاستدلال المنطقى، وسهولة الكلام. ثم انه ابتكر بمعونة زميل له يدعى تيودورسيمون نظاما لتصنيف المختَبرين تبعا "للعمر العقلى". عرف العمر العقلى للطفل بأنه عمر مجموعة متجانسة من أطفال أسوياء من سن واحد يعطون عند اختبارهم نفس عدد النقاط التى يحرزها الطفل. نعنى أنه إذا أحرز طفل عمره ست سنوات عند إختباره عددا من النقاط يعادل متوسط مايحرزه أطفال أسوياء فى سن العاشرة، فإن عمره العقلى سيكون عشرة، وإذا ماأحرز طفل عمره عشر سنوات نفس متوسط أطفال عمرهم ستة، قلنا إن عمره العقلى هو ستة.

نقل السيكولوجي الأمريكى هنرى هـ. جودارد اختبارات بينيه سيمون من أوروبا إلى الولايات المتحدة عام ١٩٠٨. فى ذلك الوقت كانت السيكولوجيا فى أمريكا تتنصل من ارتباطها التقليدى بالفلسفة، وكانت تتحرك - تحت قيادة مبدعين من أمثال ج. ستانلى هول فى اتجاه مستقل تجريبى. كان جودارد، تلميذ هول، ممثلا نمطيا لهذا الاتجاه، ولقد تأثر بطبيعته بهذه الاختبارات، فهى على الأقل تبدو وكأنها توفر مقياسا مباشرا كمّياً للذكاء. جرب اختبارات بينيه

ـ سيمون بمدرسة تدريب الأطفال ضعاف العقول بفاينلاند نيوجرسي، وكان قد عُين بها مديرا للمعمل الجديد لدراسة القصور الذهني ـ وهذا واحد من أوائل المعامل التى أنشئت بأمريكا.

بدا أن هذه الاختبارات تصنف التلاميذ بطريقة تتمشى مع الخبرة المباشرة لمدرسيهم. كانت أعمار "الأولاد والبنات" فى مدرسة فاينلاند تتراوح، وتصل إلى الخمسين، ورغم ذلك فلم يحرز أيهم في الاختبار عمرا عقليا يزيد على ١٢ عاما. وعلى عام ١٩١١ كان جودارد قد جرب برنامج بينيه ـ سيمون على الكثير غير هؤلاء، من بينهم نحو ٢٠٠٠ طفل. اعتقد جودارد أن هذه الاختبارات "دقيقة لحد عجيب، ومن الممكن بسهولة أن يطبقها أى باحث ميدانى دون أن يعرف أحد أنه قد وُضع تحت الاختبار".

لاحظ جودارد باهتمام خاص أن نتائج الاختبار تكشف عن تباينات واسعة فى درجة "الضعف العقلى" ـ وهذا مصطلح كان يستخدم آنئذ ليعنى مجالا عريضا من القصور الذهنى، وأيضا من النزوع نحو السلوك الاجتماعى ا لمنحرف. فتحت هذه النتائج أيضا طريقا للتمييز بين الاختلافات. فعندما حول جودارد الأرقام إلى فئات، تمكن في النهاية من أن يعرّف "المعتوه" من بين ضعاف العقل بأنه الشخص الذى يكون عمره العقلى واحدا أو اثنين، أما "الأبله" فعمره العقلى يتراوح مابين ٣، ٧، أما من يقع عمره العقلى بين ٨، ١٢ فقد أطلق عليه اسم "المغفل".

كشفت بعض الدراسات الميدانية الأولى لجودارد عن عائلات تتميز بارتفاع نسبة القصور الذهنى بها ـ ثمة عائلة ظهر بها ٣٠٠ فرد من بين ٦٠٠. اشتبه ـ مثل الكثير غيره من علماء عصره ـ فى أن صفة "الضعف العقلى" صفة وراثية. ولقد اعترف لتشارلس دافينبورت أن ماديه بالنسبة لوراثة القصور الذهنى هو "حماس أكثر منه علم". بدأ دافينبورت يتشاور مع جودارد حول الموضوع عام ١٩٠٧، ليجعل من وراثة ضعف العقل موضوعا ذا أهمية متزايدة فى مكتب التسجيل اليوجينى، ووفر لجودارد بحاثا ميدانيين يساعدونه فى إجراء بحث علمى عن الخصائص الذهنية لتلاميذ فاينلاند وأقربائهم فى ا لمجتمع المحلى.

باستخدام هذه البيانات نشر جودارد عام ١٩١٢ بحثا عنوانه "عائلة كالّيكاك: دراسة فى وراثة ضعف العقل"، تفحص فيه هذه العائلة ذات الاسم المستعار (اشتق هذا الاسم من كلمتين يونانيتين هما كالوس وتعنى "طيب" وكاكوس وتعنى "ردىء")، واتبعها بعد سنتين

بدراسة أخرى عنوانها "ضعف العقل: أسبابه ونتائجه"، وفيها تصور أن ضعاف العقول هم صورة من صور الانسانية غير المتطورة: "كائن حيواني قوى ذو ذكاء منخفض وجسم متين - الانسان البرى لعصرنا". رأى جودارد ضرورة أن نميز مابين المغفل والمجنون، فعقل الأخير مريض، أما عقل الأول "فهو - وظيفيا - عقل قزم". وأكد أن المغفل - على عكس المعتوه والأبله - قد يبدو طبيعيا، ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك.

كشفت دراسات تالية في الذكاء طبقت فيها اختبارات بينيه - سمون، عن ارتفاع نسبة القصور الذهنى بين نزلاء السجون والاصلاحيات وملاجىء المتمردات. حاول جودارد أن يبرهن على أن ضعاف العقول يفتقرون إلي "عامل أو آخر ضرورى للحياة الطبيعية - تفهم للصواب والخطأ، القدرة على التحكم"، يصبح المبتلون بهذه العلة مهملين لأنه لايستطيعون النجاح فى الدراسة. ويكبرون ليصبحوا مجرمين لأنهم يفتقرون إلى القدرة على "فعل الصواب وتجنب الخطأ"، أو معوزين لأنهم يجدون أن أثقال المعيشة تفوق قدراتهم، أو مومسات لأنهن ضعيفات العقول وغبيات. لم يكن جودارد متأكدا من سبب القصور الذهنى وهل هو ناتج عن وجود شىء فى المخ يثبط تطوره الطبيعى أم عن غياب شىء يُفترض أن ينبهه. لكن أيا كان السبب، فثمة ماهو متأكد منه: إن الصفة تسلك سلوكا منذليا. كان ضعف ا لعقل "حالة للعقل أو الذهن تنتقل بنفس انتظام وثبات صفة لون الشعر أو العين".

كان لبحث جودارد أثر بالغ على الجماعة المهتمة بدراسة الانحراف الاجتماعى. تزايد الاعتقاد بأن منشأ السلوك غير الاجتماعى يكمن في النموذج الذهنى لا الجسدى، وأن هناك كما يقول ميشيل جاير "قدرا كبيرا من الجريمة والفسوق الفاضح يرجع أصله إلى ضعف العقل". قُدرت نسبة ضعاف العقول فى أمريكا برقم يتراوح بين ١٪ و ٣٪ من المجتمع، وكانت العادة أن يقال إنهم يمثلون "خطرا". بدأ العلماء على جانبى الأطلنطى، المهتمون بالمعوقين ذهنيا، فى تفحص تاريخ عائلاتهم، وجدوا أن بعض حالات القصور الذهنى ترجع فى الواقع إلى مرض أو حادثة، لكن الفكرة الشائعة بخصوص السبب الرئيسى كما فحصها هافلوك إليس عام ١٩١٢ هى: "أن ضعف العقل ينتقل بالوراثة".

نبهت اختبارات جودارد غيره من السيكولوجيين لاختبار نظم مختلفة للتقييم الكمى للمقدرة الذهنية. ابتكرت نظم جديدة للاختبار تصلح للأطفال الطبيعيين وللأطفال المتخلفين ذهنيا. من

بين أهم هذه النظم كان ثمة تنقيح لاختبارات بينيه ـ سيمون نشره عام ١٩١٦ ـ فى جامعة ستانفورد ـ السيكولوجى لويس تيرمان (وهو طالب آخر من طلبة ج. ستانلى هول) الذى توصل إلى اختبار ذهنى وإلى نظرة وراثية للذكاء من خلال بحث له تم على الأطفال المبكرين فى النضج الذهنى ـ ومن بينهم ابنه وابنته. كان تيرمان هو من قدم مصطلح حاصل الذكاء (ح ذ). وهذا مفهوم ابتكره السيكولوجى الألمانى وليام شتيرن، ويعبر عن نسبة العمر العقلى للطفل، إلى سنّه، مضروبة × ١٠٠. فإذا كانت النسبة = ١ فإن ح ذ للطفل يكون ١٠٠، وإذا كانت ٩ر٠ يكون ح ذ = ٩٠، وإذا كانت ١,١ يكون ح ذ = ١١٠ وهكذا (سعد تيرمان كثيرا إذْ ذكر أن ح ذ لابنه وابنته كان يقع دائما مابين ١٢٥، ١٤٠).

قبل الحرب العالمية الثانية كان ثمة قدر كبير من المقاومة لاختبار الذكاء. كان من الضرورى أن تجرى الاختبارات فردية. والعادة (كما ادعى الكثير من السيكولوجيين) أن تجرى بواسطة سيكولوجى متخصص. وبسبب ارتفاع التكاليف استخدمت الاختبارات فى معظمها فقط لتحديد هوية تلاميذ المدارس المعوقين ذهنيا وتصنيفهم. لكن المهم هو أن الكثيرين كانوا يعتقدون أن اختبار الطفل إنما يعنى التشكك في ذكائه، ذلك أن هذه الاختبارات كانت ترتبط بقياس القصور الذهنى. وفى عام ١٩١٦ عرضت قضية إسترماير أمام محكمة نيويودك العليا. أُوصى بأن تودع الطفلة في مؤسسة للرعاية بسبب مايبدو انخفاضا فى ذكائها. واعترض الوالدان. رفض القاضى جون و. جوف أن يقبل نتائج اختبار بينيه ـ سيمون دليلا على ماادُّعى من قصور بذهن الطفلة، وأعلن أن "توحيد قياس العقل أمر باطل كمثل توحيد قياس الكهرباء" ثم حذر من أن "المتحمسين للعلم أو العلم الكاذب" يمكن بسهولة شديدة أن يشهدوا شهادة متحيزة بالنسبة للاختبارات (شجبت "التايمز" النيويوركية رأى القاضى جوف: "إن اختبارات بينيه ـ سيمون إذا ماطبقت بذكاء لهى جديرة بالثقة تماما مثل جدول الضرب"). على أن هواجس القاضي قد نُسيت بسرعة، فلقد استخدم الاختبار بكثافة أثناء الحرب العالمية الأولى لفرز مئات الآلاف من المطلوبين للقرعة العسكرية الذين تدفقوا علي جيش الولايات المتحدة.

كان رئيس المختبرين فى فترة الحرب هو عالم السيكولوجيا المقارنة روبرت م. يركيس، الذى تشكلت مواقفه العلمية جزئيا عن طريق فرانسيس جالتون. فلقد أطلعه دافينبورت أيام كان يدرس له في هارفارد عام ١٨٩٨ على أعمال جالتون. ساعد يركيس أثناء عمله كعضو هيئة تدريس شاب فى هارفارد، ساعد فى إثارة قضية فصل السيكولوجيا عن الفلسفة،

مصرا علي أن دراسة الظواهر السيكولوجية لابد أن ترتكز على الحقائق لاعلى التأملات، ولابد أن تُربط بعلم منهج تجريبي، بل والأفضل، كَمّي. بدأ يركيس بعد أن سحرته دراسة القدرة الذهنية، بدأ عام ١٩١٣ فى إجراء تجاربه مستخدما الاختبارات العقلية فى مستشفى بوسطون للأمراض النفسية بالاشتراك مع بروفسور إيرنست أ. سوثارد، من كلية طب هارفارد، وهذا حليف جودارد، ومستشار دافينبورت، ويوجيني مؤكد. طور يركيس مع جيمس وبريدجز (طالب الدراسات العليا فى السيكولوجيا بهارفارد، والطبيب المقيم بالمستشفى) طورا مقياس يركيس، وهو مقياس منافس لنظام بينيه ـ سيمون في قياس القدرة العقلية. وفى عام ١٩١٦ ـ نفس السنة التى انتُخب فيها يركس لرئاسة الجمعية السيكولوجية الأمريكية ـ رفضت هارفارد منحه منصبا أكاديميا، ويبدو أن هذا يرجع أساسا إلي أن إدارة الجامعة كانت تعتبر أن مجال عمله لايستحق. كان لدى يركيس ـ المحب لليوجينيا والطّموح للعلم ـ أسبابه الخاصة للتدليل على أهمية استخدامات عمله خلال فترة الحرب (قال ذات مرة "إن الانسان، نظريا، يخضع للقياس، تماما مثل قضيب الحديد").

كانت الأكاديمية القومية للعلوم قد شكلت أثناء ذلك مجلسا قوميا للبحوث لتحريك العلماء للدفاع. وفي مايو ١٩١٧ وتحت رعاية هذا المجلس، شرعت جماعة من السيكولوجيين ـ يرأسها يركيس وتضم تيرمان وجودارد ـ فى تصميم برنامج اختبار من أجل الجيش "ليس أساسا لاستبعاد المتخلفين عقليا، وإنما لتصنيف الرجال بحيث يمكن أن يلحقوا بالوحدات الصحيحة بالجيش"، كما قال يركيس. وضعت اللجنة مجموعتين من الامتحانات بهدف إدخال النظام العلمى إلى التصنيف: اختبارات ألفا للمثقفين، واختبارات بيتا لمن عداهم. وكان من الممكن أن تستخدم هذه الاختبارات جماعيا علي البالغين، على عكس معظم اختبارات الذكاء في ذلك الحين. قال تيرمان "إذا كان لآلة الجيش أن تعمل بسلاسة وكفاءة، فمن الضرورى أن توافق الوظيفة الرجل، كما توافق الذخيرة البندقية".

تتألف اختبارات ألفا من نوع الأسئلة المألوف لدى الطلبة ـ المتواليات الرقمية، تناظر الكلمات، مسائل الحساب، مشاكل المرادفات والمناقضات، وأسئلة العقل العام. أما اختبارات بيتا فكانت تتألف أساسا من مسائل تصويرية تتضمن مقارنة أشكال، وإكمال رسوم ناقصة. كان لدى العسكرى النظامى شكوكه حول الهدف من هذه الاختبارات وحول استخدامها العملى، بل لقد اشتبه بعض الضباط فى أن يركيس وطاقمه يحيلون المعسكرات إلى معامل

تخدم أغراضا تخصهم. ثم أن معظم الضباط القدامى رأوا أنهم قادرون تماما على أن يقرروا دون أى اختبارات أى الرجال يصلح كجندى وأيهم لايصلح. في فورت ديكس رأى القائد أن واحدا من المجندين، كانت درجته في الاختبار منخفضة للغاية، هو "مثال للولاء والثقة والمرح والهدوء وحب المساعدة"، ثم تساءل مندهشا "فيم يهمنا ذكاؤه؟".

اكتشف الناقدون فى الجيش مشكلة ستظل تزعج ممتحنى الذكاء. فالاختبارات متحيزة إلى المهارات المدسية، ونتيجتها تعتمد على الخلفية التربوية والثقافية للشخص المختَبَر. ادعى يركيس وغيره أن هذه الاختبارات تكاد تكون مستقلة تماما عن التاريخ البيئى للشخص الممتحن، وأنها تقيس "الذكاء الفطرى"، لكن المؤكد أن السؤال التالى من اختبار ألفا يتطلب معرفة يصعب أن يوفرها الذكاء الفطرى: يستخدم محرك نايت فى: الباكار/ ستيرنز/ لوزير/ بيرس أرو. كما أن من يجرى عليه الاختبار قمين بأن يصيب نجاحا أكبر فى مسائل المرادفات والمسائل الحسابية باختبار ألفا، إذا كانت ثقافته المدرسية أكثف. كان على المجندين الأميين والمجندين الذين لايعرفون الانجليزية أن يتغلبوا، فى اختبار بيتا، على الغموض والشك اللذين يكتنفان التوجيهات الشفوية. ثم أن الكثيرين ممن يجرى عليهم اختبار بيتا لم يسبق لهم أن دخلوا اختبارا تحريريا. يقول أحد الممتحِنين "لقد أثر فىّ كثيرا أن أرى المجهود الفائق... الذى يُبذل لإجابة الأسئلة، يقوم به رجال لم يسبق لهم يوما أن أمسكوا بقلم". على أن الجبيش كان عليه أن يفرز العدد الهائل من المتقدمين للتجنيد، وكانت هذه الاختبارات توفر بعض الدلالات على القدرة الذهنية. مضى برنامج الاختبار قدما. وبحلول الهدنة كان عدد من اختُبر بالفعل قد بلغ مليونا وسبعمائة ألف شخص. استخدم الضباط هذه البيانات فى تعيين المكان الملائم للأفراد. ولقد ظل محتوى الاختبارات سرا من الأسرار العسكريه طيلة فترة الحرب.

أثارت تجربة الاختبارات أثناء الحرب تحولا خطيرا في موقف الجمهور من اختبارات الذكاء. تدفقت مئات الاستفسارات علي يركيس بعد الحرب للسؤال عن اختبارات ألفا وبيتا، بعد أن أصبحت مباحة. صاغ يركيس وزملاؤه، بمساعدة منحة من مؤسسة روكيفيلر، اختبارا قوميا قياسيا للذكاء، بيع منه أكثر من نصف مليون نسخة في أقل من عام. فحص مختبرو الذكاء أعدادا أكثر وأكثر من ذوى الإملاق والسكيرين والمنحرفين والمومسات. أدخلت المؤسسات الصناعية والتجارية الاختبارات العقلية فى مسوغات تعيين موظفيها. أُجريت

اختبارات الذكاء سنويا على بضعة ملايين من تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية، وبدأت بعض الكليات والجامعات في استخدام اختبارات الذكاء عند قبول الطلبة الجدد.

نتج عن رواج الاختبار بعد الحرب قدر كبير من البيانات المتعلقة "بذكاء" الشعب الأمريكي، لكن حجم هذه البيانات كان متواضعا مقارنة بمانتج عن برنامج الاختبار أيام الحرب. لخصت الأكاديمية القومية للعلوم هذه التجربة عام ١٩٢١ في مجلد ضخم عنوانه "الاختبار السيكولوجي فى جيش الولايات المتحدة". قام يركيس وتيرمان وزملاؤهما بصياغة التقرير، وقُسمت فيه عينة كبيرة من نتائج الاختبارات تبعا للمنطقة الجغرافية، والخلفية العرقية والسلالية. لم يلق هذا المجلد رواجا كبيرا رغم سمكه (بوصتين) ووزنه (خمسة أرطال) وعدد كلماته الذى يزيد على نصف مليون كلمة، ولكنه شكّل الأساس للعديد من الكتب والمقالات الشعبية عن اختبارات الذكاء وعن أهميتها الاجتماعية. كان هناك من بين المجندين عدد يقترب من المائتى ألف (نحو ربع قوة الجيش) لايستطيع قراءة الجرائد أو كتابة الرسائل للأهل. وربما كان من أهم النتائج أنْ ظهر أنَّ العمر العقلى للمجند الأبيض المتوسط (وبالتالى الأمريكى الأبيض) كان ثلاثة عشر عاما.

قام السيكولوجى كارل بريجهام - وهو واحد ممن أجرى اختبارات الجيش أثناء الحرب - قام بالتوسع فى تحليل بيانات الجيش عام ١٩٢٣ فى كتابه "دراسة فى الذكاء الأمريكى". قال بريجهام إن بيانات الجيش تشكل "أول إسهام جوهرى حقا فى دراسة الفروق العِرْقية بالنسبة للصفات العقلية". أسَرَّ دافينبورت فى المرحلة الأولى من تحليل بياناته "بأننا نسير على الطريق السليم عندما نقول إن البلازما الجرثومية التى تصل الآن إلى الوطن لاتحمل نفس ماكانت تحمله سابقا من إمكانيات". أذاع هنرى جودارد عام ١٩١٧ أن اثنين من كل خمسة يصلون على ظهر السفن هم من "ضعاف العقول" - وكان ذلك بناء على نتائج اختبار بينيه - سيمون الذى تم قبل ذلك بخمس سنوات على مجموعة صغيرة من المهاجرين "العاديين" وصلت إلى أليس أيلاند. وجد كارل بريجهام - بناء على اختبارات الجيش - أن "السلالات" الآتية من الألب أو من منطقة البحر الأبيض "متخلفون ذهنيا عن نموذج الجنس الشمالى". ثم أنه قد أعلن أيضا أن متوسط ذكاء المهاجرين ينحدر، وهو قول ذاع كثيرا فى المطبوعات الشعبية.

الواضح أن متوسط ذكاء الأمريكيين السود كان على المستوى المنخفض الذى يحب الأمريكيون أن يتصوروه. وعلى من يشك فى هذا أن يرجع إلى تحليل بريجهام لبيانات الجيش.

ولقد بينت اختبارات أخرى مَسْحية أن السود يشكلون نسبة من "ضعاف العقول" تزيد عن نسبتهم فى المجتمع. ويبدو أن اختبارات الجيش كانت تشير أيضا إلى أن العمر العقلى للشخص الأسود العادى بالولايات المتحدة هو عشر سنين.

الواضح أن هناك كوكبة من الأسباب قد تبرر هذه النتائج - من بينها التحيز الثقافى لاختبارات الجيش نفسها، والثقافة المتواضعة للكثير ممن ينفذون الاختبار. لكن بيانات الاختبارات التى افتُرض موضوعيتها قد أقنعت الأمريكيين المؤمنين باليوجينيا ليس فقط أن الوراثة تحدد التخلف الذهنى، ولكنها تحدد الذكاء أيضا. كان طلبة الجامعة البيض يحرزون نتائج طيبة للغاية في اختبارات ألفا، ومثلهم أيضا طلبة المرحلة الثانوية من البيوت الأنجلو سكسونية وبيوت كبار الموظفين. وقد أُخذ هذا على أنه يعنى أن الطلبة الموهوبين يخرجون من بيوت - على حد تعبير أحد المدرسين - "متميزة عرقيا واقتصاديا واجتماعيا وذكاءً". فورا أبرز تيرمان والبعض غيره من السيكولوجيين أن فتح مجالات الفرص أمام أبناء المجاميع الدنيا من الناحية الاجتماعية الاقتصادية قد لايؤدى إلى شىء، فحظهم من ح ذ لم يكن منافسا. أخذ جورج ب. كاطين رئيس جامعة كولجيت نتائج اختبار الجيش مُرْتَكَزاً لمهاجمة دَقْرَطَة التعليم العالى، ثم تعجب بصوت عال فى خطاب تولّيه منصبه عما إذا كانت الديمقراطية نفسها ممكنة في دولة يبلغ متوسط العمر العقلى لشعبها ثلاثة عشر عاما.

لم يكن لدى اليوجينيين البريطان مجموعة مناظرة من البيانات تعضد معتقداتهم عن الطبيعة الوراثية للذكاء، ولكن كان لديهم سيريل بيرت. كان بيرت - ابن طبيب الأرياف - قد تأثر ذهنيا في شبابه بفرانسيس جالتون العجوز - الذى كان من بين المرضى الذين يعالجهم والده. تشرب مبادىء جالتون الوراثية أثناء دراسته بأكسفورد فى أوائل القرن وأثناء عمله كمعيد فى الفسيولوجيا والسيكولوجيا بجامعة ليفربول، كما تشرب بتقنيات كارل بيرسون الاحصائية، وبالنظرية المندلية للوراثة، وأصبح من أوائل الأعضاء فى جمعية الثقافة اليوجينية. وفيما بين عامى ١٩٠٩ و ١٩١١ اختبر صبيانا من مدرسة اعدادية وأخرى أولية عليا فى أكسفورد، ومن مدرسة فى حي الفقراء بليفربول. كان معظم أطفال المجموعة الأولى من أبناء أساتذة الجامعة وأعضاء الجمعية الملكية ورجال الدين، أما الثانية فكان معظم أطفالها من أبناء صغار التجار والحرفيين، بينما كان أطفال المجموعة الثالثة من أبناء العمال. كان أداء صبيان المدرسة الاعدادية أفضل من أداء صبيان المدرسة الأولية، الذين كان أداؤهم بدوره أفضل بكثير من

أداء صبيان مدرسة ليفربول. "إن القدرة الذهنية تورَّث بين الأفراد. إن البراهين على هذا براهين حاسمة"، هكذا صرح بيرت معلنا موقفه الذى أذاعه فى عناد ليصبح فى متناول الجمهور.

قرأ بيرت فى اعجاب بمجلة "يوجينيك ريفيو" تقريرا يشبه تقارير بريجهام وضعه روبرت يركيس عن نتائج اختبار الجيش بالولايات المتحدة. كتب إلي يركيس يقول "إن عملك عن الجيش الأمريكى قد قدم للسيكولوجيا بهذه الدولة زخماً هائلا". لم يُظهِر معمل بيرت - مثل الفكر اليوجينى عوما - إلا القليل من المواضيع العرقية التى تميز المدرسة الأمريكية. والحق أنه استنبط بعد استعراض للبحوث البريطانية والأمريكية عن الخصائص العرقية، استنبط أنه بالرغم من أن أثر الوراثة بالنسبة للأفراد "كبير، لايقبل الجدل" فهو بالنسبة للسلالة "صغير، مثير للخلاف". أدرك بيرت أيضا - وهو مَنْ كان يوما عاملا فى منازل القرى - أنه من الصعب أن تعزى كل الجريمة والانحراف إلى مجرد ضعف العقل. لكن كتاباته أعطت دعما كبيرا في سنى ما بين الحربين للاعتقاد بأن الذكاء ليس وراثيا فقط، وإنما هو مرتبط وبشدة بالوضع الاجتماعى الاقتصادى - نعنى الطبقة، الصفة الرسمية التى تشغل اليوجينيا البريطانية.

أيا كان تحامل اليوجينيين البريطان واليوجينيين الأمريكان، فلقد أزعجهم جميعا اتجاه ذكاء الأمة في بلادهم. فقبل الحرب العالمية الأولى، حذَّرَ يوجينيون مثل كارل بيرسون وتشارلس دافينبورت من أنَّ تزايد النسل فى الطبقات الدنيا إنما يفضِّل مَنْ هم أقل صلاحية. ولقد قدم تنامى اختبارات ح ذ بعد الحرب دعماً كميا للفكرة اليوجينية عن الصلاحية. فرواج الاختبار العقلى قد تسبب فى أكثر من مجرد تنمية الخوف من "خطر ضعاف العقول". لقد وحَّد بين المصدر الرئيسى للخصب الطائش وبين المجاميع المنخفضة فى حاصل الذكاء، وعادل بين التدهور القومى وانحطاط الذكاء القومى.

اقتنع معظم مختبرى الذكاء وجمهورهم بالنظرية البيولوجية، فقد قُدِّمت لهم في لغة علم تبدو محايدة، ولقد تشكل جانب كبير من أفكارهم عن التحامل العرقى والطبقى الذى كان قد عم اليوجينيا. قدم هنرى جودارد بنفسه رأيهم العلمى فى محاضرة له بجامعة برينستون عام ١٩١٩: "إن المحدد الرئيسى للسلوك الإنسانى هو العملية الذهنية المتكاملة التى نسميها الذكاء... تتحكم فى هذه العملية آلية عصبية... ودرجة الذكاء أو المستوى العقلى لكل فرد

obeikandl.com

يحدده نوع الكروموزومات التى تتلاقى باتحاد الخلايا الجنسية... (و) هى لاتتأثر إلا قليلا بأى عامل تال، اللهم إلا الحوادث الجسيمة التى تدمر جزءا من الآلية. وعلى هذا فإن أية محاولة للتعديل الاجتماعى لاتضع فى اعتبارها أن صفة الذكاء صفة جبرية، وأن درجة ذكاء الفرد لاتتغير، هى محاولة غير منطقية وغير كفء".

obeikandl.com